

## البَابُ الثَّالِثُ

### القرآن والتربية الجنسية

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة )

(الروم)

( وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات )

( النحل )



## القرآن والتربية الجنسية

في القرآن منهاج للحياة الدنيا كما أن فيه بصائر للآخرة .. فالقرآن يعلمنا تفاصيل الحياة العملية الفاضلة كما يريدنا الله وكما ينبغي لها أن تكون بمقياس الفطرة السليمة .. والقرآن لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. حتى التربية الجنسية .

يقول موريس بوكاي<sup>(١)</sup> :

هناك آيتان قرآنيان تخصان العلاقة الجنسية . ويذكر القرآن ذلك بألفاظ تربط بين الرغبة في الدقة والاحتشام اللازم . وعندما نرجع إلى ترجحات وتفسيرات هاتين الآيتين فإن الاختلاف بينها هو أول ما يسترعى الانتباه ، ولقد ترددت طويلا أمام تفسير هاتين الآيتين وإني مدين بالتفسير الذي أقدمه لهاتين الآيتين للدكتور عبد الكريم جبرو ، الأستاذ السابق بكلية الطب ببيروت .  
وفي هاتين الآيتين يقول الله تعالى :

( خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ) . الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الطارق . يشير النص القرآني إلى منطقة الرجل الجنسية بكلمة ( صلب ) .. أما المنطقة الجنسية للأنثى فيشير إليها بكلمة ( ترائب ) وهي جمع . ويختلف هذا التفسير عن ذلك الذي كثيرا ما يعطيه المعلقون الفرنسيون والإنجليز إذ يقولون : ( خلق الإنسان من سائل منتشر يخرج بين العمود الفقري وعظام الصدر وليس هذا التفسير مفهوماً بشكل كاف ) .

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم - موريس بوكاي - دار المعارف .

وتشير آيات (٢) قرآنية إلى سلوك الرجال في علاقتهم الأثيرة مع نساءهم في ظروف متنوعة .

فأولا هناك التوجيه بالسلوك اللازم في مدة الحيض وتشير إلى ذلك الآيتان ٢٢٢ ، ٢٢٣ من سورة البقرة : ( ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نسأؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم ) .

والمعنى واضح تماما : فتحريم إقامة علاقات جنسية مع امرأة حائض أمر قاطع . أما الآية الأخيرة فيشير المعنى إلى الحرث الذى يسبق ، عند البادر ، وضع البذور التى ستنبت زرعًا جديدًا « الحرث » . إذن لا بد أن يكون واضحًا لدى الإنسان أن الهدف النهائى للعلاقة الجنسية هو الإنجاب .... والعلاقات الجنسية مسموح بها فى الليل فقط طيلة فترة الإفطار من شهر رمضان .. ففى الآية ١٨٧ من سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى ( أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ... فالآن باسروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ) .

وعلى العكس من ذلك فليس هناك استثناء للحجاج فى أثناء أيام الحج المحددة :

( ... فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال .. ) الآية ١٩٧ من سورة البقرة . فالتحريم هنا قاطع كتحریم الصيد والخصام وغيره فى نفس هذه الفترة .

وفى الآية ٤ من سورة الطلاق : ( واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن

---

( ٢ ) فى كتاب موريس بوكاى (وتشير عبارات ... ) .

ارتبثتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ) .

والأمر هنا عن تلك الفترة التي تمر من إعلان الطلاق وحتى يصير فعلياً .. والنساء اللاتي ( يئسن من المحيض ) في الآية هن اللاتي بلغن سن اليأس . وقد خصص القرآن هن احتياطاً فترة من ثلاثة أشهر بعدها تستطيع تلك النساء المطلقات اللاتي انقطع طمثهن أن يتزوجن .. أما بالنسبة إلى النساء اللاتي لم يحضن بعد فلا يكون الطلاق فعلياً إلا بعد الوضع .. وكل هذه التشريعات تتفق تماماً مع المعطيات الفسيولوجية . وبالإضافة إلى هذا نستطيع أن نجد في القرآن في النصوص الخاصة بالتمل ، نفس الأحكام السديدة .

بناء على كل هذه فالمقولات النظرية الخاصة بالتناسل والتوجيهات العملية التي بصوغها القرآن فيما يختص بحياة الأزواج الجنسية ، نلاحظ أنه ليس هناك أي مقولة مما سبق الحديث عنه تتعارض مع معطيات المعارف الحديثة ولا مع ما يمكن أن يخرج منطقياً عنها .

\* \* \*

هذا ما يقوله « موريس بوكاي » وهو ليس بمسلم .. ولكن يأبي الله إلا أن يتم نوره وأن يشهد للإسلام حتى خصومه .. ذلك أن الإسلام لا يتكلم عن الأحكام خلصة ولا في الظلمة بل هو يواجه الحياة جهره ويسلط الأضواء حتى على طاقة الجنس فيعترف بها اعترافاً كاملاً صريحاً وقويماً .. ثم يجتاز مجرد مرحلة الاعتراف إلى مرحلة التنظيم والتقوم فيريها لا بالقمع والكبت ولكن بالتأديب والتهذيب والأخذ منها بأعدل نصيب .. حتى إنه ليجعل للزوج صدقة في بضعه .. يقول الرسول ﷺ : « وفي بضع أحدكم صدقة » . قالوا يا رسول الله إن أحدنا لياثي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟ قال : « أرايتم لو وضعها في

حرام ، أكان عليه وزر ؟ « قالوا : نعم ، قال « فإذا وضعها في حلال فله عليها أجر . » رواه مسلم .

هكذا يكون الأمر وإلا فلا .. دون عناد ولا هروب .. ودون استنكار أو استقذار أو حطٍّ من قيمة هذا العمل الذي شرعه الله لعباده مع زوجاتهم حلالهم .. حفاظًا على عفة الزوج وإحصانًا للفروج .. ومنعا لخلط الأنساب وانحرافات الأسر .. يتناول الإسلام هذه الطاقة المودعة أمانة في جسم الإنسان فيضبطها ويهذبها وينظفها فلا يكون منها إلا ثمرة طيبة هي الذرية الصالحة .. كذلك فإن الإسلام ينظم هذه الطاقة حتى مع الشباب ممن لم يتزوجوا .. فيخطبهم الرسول ﷺ بقوله : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .. » وجاء : أى حصن وجنة يقيه من الانحراف .

بل إن الإسلام ليعتبر مسألة الجنس جزءًا من العبادة (٣) فالتبى ﷺ يستحث على أدائها إذ يقول : « أكملوا نصف دينكم بالزواج » فإذا قيل إنه ينظر إلى الناحية الأخلاقية لا الجنسية . فهو الذى يقول : « حيب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب والنساء وقرعة عيني في الصلاة » فيرفع الجنس من حيث هو جنس إلى مستوى الصلاة ، أظهر ما يتطهر له المؤمن ، ومستوى الطيب ، أزكى رائحة تتعش لها الروح . وهو هنا إنما يتحدث عن المرأة الحليلة وليس الحليلة .

بل إن ما يصنعه المسلمون ولا يزال أتقياؤهم حريصين عليه قراءة اسم الله قبل البدء في العملية الجنسية ليدل دلالة قاطعة على مدى نظافة الجنس في حس المسلم .. وهكذا يستجيب الإسلام لأهداف الحياة كلها في وقت واحد لا يغفل

(٣) الإنسان بين المادية والسلام - محمد قطب - (المشكلة الجنسية) .

منها شيئاً ، ولا يقمحه إقحاماً على النفوس . فهو إذ يعرف دافع الجنس يعرف حق الحياة في استمرار النسل وحق الناس في إجابة الشهوة الطاغية . وإذ ينظف وسائل التنفيذ يعرف استهداف الحياة للارتفاع وقدرة الناس عليه ولا يكلفهم مع ذلك شططاً .

\* \* \*

يتصور الإنسان العلاقة بين الرجل والمرأة على أنها الشيء الطبيعي الذي ينبغي أن يكون ، فهو يقر بأن الله تعالى قد جعل في قلب كل منها هوى للآخر وميلاً إليه ، ولكنه يذكرهما بأنهما يلتقيان لهدف هو حفظ النوع ، فمن المسلم به لدى ( العلم ) أن للوظيفة الجنسية هدفاً معلوماً وليست هي هدفاً في ذاتها . يقول تعالى : ( نساؤكم حرث لكم .. ) فالإسلام يجعل للفرد صفتين في آن واحد : صفته كفرد مستقل ، وصفته كعضو في الجماعة .. ونرى ذلك حتى في المسألة الجنسية . فإذا ألقى الله في قلب كل جنس هوى للجنس الآخر ، فالإسلام يهدف من وراء ذلك أولاً إلى إنتاج النسل . وهو الوظيفة القريبة المباشرة . ولكن هذا جزء من تناسق أكبر.. فهناك الأسرة ومالها من مكانة رفيعة في التشريع الإسلامي باعتبارها نواة المجتمع الصالح الذي يمثل مع غيره من المجتمعات الإنسانية الراقية .

\* \* \*

والقرآن يصف العلاقة بين الرجل والمرأة في تعبير دقيق جميل فيقول : ( هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ) وهو تصوير بارع لعلاقة الجسد وعلاقة الروح في آن . فاللباس ألصق شيء ببدن الإنسان وهو الستر الذي يستتر به وهو في الوقت ذاته يناسب قده لا ينقص ولا يزيد ، والرجل والمرأة ألصق شيء ببعضها ببعض ، يلتقيان فإذا هما جسد واحد وروح واحدة . وفي لحظة يدوب كل منهما

في الآخر فلا تعرف لها حدودًا . وهما أبدًا يهفوان إلى هذا الاتصال الوثيق الذي يشبه اتحاد اللباس بلاسه .

ثم هما ستر ، كل واحد للآخر فليس أحد أستر لأحد من الزوجين المتآلفين ، يحرص كل منهما على عرض الآخر وماله ونفسه وأسراره أن ينكشف منها شيء فتنبه الأفواه والعيون .. وإذا كانت العلاقة بين الرجل والمرأة وثيقة إلى هذا الحد فقد وجب أن يلتقيا ليكون كل منهما لباسًا لصاحبه ، يزينه ويكمله ، يلتصق به للوقاية والستر . فلا مناص حين يلتقي الجنسان من أن تختار للبشرية بين أحد وضعين :

- أن تكون جميع الإناث لجميع الذكور على الطريقة الغالبة بين الحيوان (٤) .

- أو تكون امرأة واحدة لكل رجل ، ورجل لكل امرأة - في الأغلب - ، وكان الأمر الطبيعي أن يختار الدين هذا الوضع الأخير الذي يحقق من المتاع والطمأنينة أكثر مما تحقق النسوة المسعورة ، التي تخلف القلق العصبي والاضطراب النفسى .

---

(٤) بعض الحيوانات العليا تنشئ نظامًا قريبًا من نظام الأسرة فلا تعترف بالفوضى الجنسية من جانب الأنثى ، فإذا اشتى هذه الفوضى أحد الذكور قامت الممارك التي تنتهى بانتصار الأقوى وإذعان الضعيف .

## الزواج أحسن وسيلة لأحسن غاية وهي الإيجاب

يقول الله سبحانه وتعالى :

( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة .. ) فالقرآن يقرر لنا أن العلاقة بين الرجل والمرأة ليست مجرد علاقة إشباع شهوة<sup>(٥)</sup> الفرج بل هي علاقة تكامل من أجل العمران وليست مجرد حاجة شهوانية .. ففيما بين الرجل والمرأة تكامل في الخلق ، والعلاقة بينهما مودة وسكن ، وهي علاقة لا تنقطع بمجرد الفراغ من قضاء الحاجة الغريزية أو حتى بعد الإيجاب ، بل إنها يتآزران ويتعاونان في تربية أبنائهما بكل ما يطيقان من الرعاية والعناية حتى يؤثرانهم على نفسيهما مودة ورحمة .

ولهذا شرع الله سبحانه وتعالى نظام الزواج ليكون صلة دائمة وقوية ونظيفة ومنزهة عن مجرد العوارض التي تزول .. ليكون إطاراً صحيحاً وقوياً لنشأة هذا النبت الجديد من بنى آدم ، وحتى ينعم الأبناء بدفء الأسرة وحماية الأب وحنان الأم ، وحتى يتعلم النشء على يد الوالدين قوانين التعامل مع المجتمع المحيط بهم وغيره من المجتمعات ليشبوا على الآداب والتقوى .

ولو أن الأمر كان مجرد علاقة نزوة بين الذكر والأنثى لرأينا الطرفين وكل منهما يحاول التخلص من ثمرة هذه العلاقة والتهرب من حمل مسئولية العناية بها

---

(٥) قصد فرويد وبعض علماء الغرب أن الجنس مجرد حاجة من حاجات الإنسان التي لا بد من البحث عن عديد من الوسائل لإشباعها مما نتج عنه ما نسمع به اليوم من عقود الزواج بين الرجل والرجل أو المرأة والمرأة مما تعافه الفطرة السليمة ومحرمه الأديان .

وتربيتها مما ينعكس على الطفل ، فيصيبه بالعقد النفسية والأمراض العضوية ، فيتحول إلى المجتمع المريض الذى شاء له قدره أن ينشأ فيه فينتقم من أعضائه ويدمره تدميراً .. وما بهذا تستقيم الحياة ولا تصلح الدنيا ، فالزواج المشروع هو أحسن وسيلة لأحسن غاية وهى الإنجاب .. وفى الصفحات القادمة نطرح موضوع الاختيار فى الزواج .. وحكم الإسلام على الزواج بالأجنبيات وحديث القرآن عن الأزواج والزوجات .. وطموح الأنبياء للبنين، على بساط البحث.. كما نعرض لأهمية الأسرة كنظام اجتماعى مشروع.

### الاختيار فى الزواج<sup>(٦)</sup>

الزواج رابطة مقدسة . تقوم على المعانى الروحية والعاطفية أكثر مما تقوم على أى معنى آخر . وهو عقد لا تراد به صفقة عابرة . ولا أمر وقته سريع الزوال . بل هو عقد يرد على اشتراك طرفيه فى الحياة شركة يراد بها الدوام والاستقرار . شركة تامة فى شئون الحياة . ما خفى منها وما ظهر ، ما عظم منها وما صغر . شركة متشعبة النواحي متشابكة الأطراف ثقيلة الأعباء كثيرة التبعات . وعقد هذه طبيعته . وهذا جلال شأنه . يجب أن يتمتع كل من طرفيه بالإرادة الكاملة والرضا التام أكثر من أى طرفين فى عقد آخر ، فليس لكائن من كان أن يكرهه على الإقدام عليه ولا على الارتباط بمن لا يريد الارتباط به . ومن حقه أن يترك فى هذا شأنه . لا سلطان عليه إلا لإيمانه وعقيدته وظروفه التى هو أدرى بها من غيره . على ألا يمس حقوق الآخرين وألا يسيء استعمال هذا الحق . وأن يبغى المشورة ويسعى إلى الاستقامة حينما يكون فى حاجة إليها .

والآيات الكريمة . والسنة النبوية الصحيحة التى وردت فى هذا الأمر كان

(٦) لفضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنهورى - من كتابه الأسرة فى التشريع الإسلامى .

من وراء دلالاتها وإرشاداتها ما جعل هذا الموضوع من المسائل الاجتهادية التي اختلفت فيها آراء الأئمة والفقهاء . وكثرت أقوالهم . وفي طليعة هذه الأقوال ما ذهبت إليه طائفة منهم : وهو أنه متى بلغ كل من الفتى والفتاة الحلم عاقلا فليس لأحد من أوليائه ولا من غيرهم أن يحمله على الزواج ولا أن يجبره على الزواج بمن لا يريد ، ولا أن يحول بينه وبين الزواج بمن يرغب في زواجه . اللهم إلا أن يكون زواجاً يجلب العار إلى قوم الفتاة . فإن لأقربهم إليها عصوبة حق الاعتراض على هذا الزواج . وطلب التفريق بين الزوجين . وما ذهبت إليه هذه الطائفة هو الذى يجرى عليه العمل بالدولة المصرية من زمن بعيد .

وإذا كان العمل بهذه الأحكام قد أطلق الحرية للجنسين فى أمر الزواج وحمى الفتيات من استبداد الآباء ومن إليهم . ووقاهن شر نزعات الأولياء التي تنشأ فى كثير من الأحيان عن بواعث بعيدة عن رابطة الزوجية . وسعادة الزوجين .. فإنه من ناحية أخرى لا يحقق الغرض المرجو فى بعض الأحيان وترك فى بنائها التشريعى ثغرة لاتزال ريح الشر والفساد تهب منها .

لا ريب فى أن الفتيان والفتيات فى أول مرحلة من مراحل النضوج الجسمي ، يمرون بطور هو الغاية فى الخطر : طور تملؤه فورة الشباب الجائعة طور قليل الخبرة والتجارب بل لا خبرة فيه : طور لايزال فيه كل من الوازع الدينى والوازع الخلقى لين العود . والاختلاط اليوم بين الفتيات والفتيان قد بلغ الذروة فى الطرقات . وفى الحقل وفى المصنع وفى المتجر . وفى دور العلم . وفى كل مرافق الحياة ، والحياة اليوم قد امتلأت بأساليب من الخبث والخبديعة لم تكن مألوفة من قبل . والسلطان الأدبى لتقاليد الأسرة ضعفت شعلته . ومن هذه العوامل مجتمعة وقعت بيننا مآسى هى الغاية فى القسوة ، شهدت دور القضاء الكثير منها ، وهذه المآسى وقعت وتقع على غير علم من أسرة الفتاة

وأهلها . وعلى الدوام تبدأ المأسة باسم الزواج في ظروف تحمل على اعتقاد أن الأسرة لا ترضى عنه . ولو أن الفتاة تعلم أنها حرة طليقة في شأن زواجها لا معقب على إرادتها لتبدل الحال غير الحال ولو قاها الله شر الوقوع في شرك النذل الجبان .

على أن اتساق التشريع . وما يجب من إعطاء كل أمر ما يستحقه من العناية وما يلائمه من الأحكام بآيوان ما نحن عليه اليوم ، حيث تنتهى الولاية على النفس بمجرد بلوغ الحلم . ثم لا رقيب ولا حسيب ولا استعانة مفروضة في أمر جليل كالزواج حتى في الطور الملىء بالمكاهه . أما الولاية على المال فتبقى إلى نهاية الحادية والعشرين عظم المال أو قل . وهذه التفرقة لا يعرف لها مثل في الشريعة الإسلامية . فكما ترى انتهاء الولاية على النفس ببلوغ الحلم كذلك تقول في الولاية على المال . والشرائع الوضعية كما تستبقى الولاية على المال إلى ما فوق العشرين تستبقى الولاية على النفس كذلك وهذه التفرقة مقلوبة الوضع . فالمال مهما عظم شأنه لا يمكن أن تصل الولاية عليه مرتبة الولاية على النفس وبخاصة فيما يتصل بالحياة الزوجية والأنساب والأعراض .

ومن رأيى أنه لا بد لنا فيما قبل بلوغ الفتاة الخامسة والعشرين من الأخذ بما ذهب إليه بعض الأئمة من أنه لا يحل للمرأة نكاح . ثيباً كانت أو بكرًا ، إلا بإذن وليها ، بمعنى أنه لا بد لصحة الزواج فيما بين بلوغ الحلم وانقضاء الخامسة والعشرين من اجتماع رضاء الزوجة وإذن الولي وإن لم يأذن الولي ترفع الأمر إلى القضاء فيأذن لها متى تبين أن في هذا الزواج مصلحة لها .

والصفات التي يجب أن تكون الأساس الصحيح لاختيار المسلم لزوجته والمسلمة لزوجها قد بينت في مواطن كثيرة من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة وهى الصفات التي تكفل للأسرة سلامة البنين .. وتحقق المقاصد السامية التي

شرع من أجلها الزواج : وهى الإحصان والعفاف . والتوالد .. والسكن والمودة  
 والتراحم وما إلى ذلك . وإذا ما توافر الحرص على هذه الصفات عند الاختيار  
 فلا حرج على مسلم ولا مسلمة أن يتغنى منها صفات أخرى يرغب فيها كالمال  
 والجمال والجاه وما إلى ذلك . أما من لا يبالي بالصفات الأساسية ولا يعنيه من  
 أمر الزواج إلا أن يكون صفقة تجارية . أو طريقاً لشهوة بهيمية فإنه آثم قلبه .  
 وخارج على تعاليم دينه . وهذا هو الذى توعدده رسول الله ﷺ بنجية الأمل .  
 وانعكاس الرجاء . فقد قال عليه الصلاة والسلام : لا تزوجوا النساء لحسنهن  
 فعسى حسنهن أن يرديهن . ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن .  
 ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل . وجاءه  
 رجل فقال يا رسول الله إني أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا  
 تلد أفأتزوجها ؟ فنهاه . ثم أتاه الثانية فنهاه ثم أتاه الثالثة فقال له : « تزوجوا  
 الودود الولود فإني مكاثركم بكم الأمم . . » وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً :  
 « من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً . ومن تزوجها لمالها لم يزد الله إلا  
 فقراً . ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا  
 أن يغض بصره ويحصن فرجه . أو يصل رحمه . بارك الله له فيها وبارك لها  
 فيه . »

## الزواج بالأجنبيات

ولست أعنى بالأجنبية فى هذا المقام إلا الأجنبية غير المسلمة ، أما المسلمة  
 فإنها لا تسمى فى عرف فقهاءنا أجنبية مها كانت دارها .  
 وزواج المسلم بغير المسلمة نزل فيه من الكتاب آيات ووردت فيه من السنة

آثار وعند النظر في هذه الأدلة اتفق أئمة المسلمين على أن زواج المسلم بغير المسلمة زواج باطل لا يصح بحال إذا لم تكن كتابية . أما الكتابية إذا كانت يهودية أو نصرانية فقد اختلفوا في صحة زواج المسلم بها . فذهبت طائفة منهم إلى أنه زواج باطل وذهب جمهورهم إلى أنه زواج صحيح . ومن هؤلاء الإمام الشافعي رضي الله عنه الذي اشترط لصحته أن تكون من قوم عُلِمَ أن آباءهم الأولين آمنوا بموسى عليه السلام قبل التحريف وبعثة عيسى عليه السلام على تفصيل في بنات إسرائيل أو من قوم علم أن آباءهم الأولين آمنوا بعيسى عليه السلام قبل التحريف وبعثة محمد ﷺ . أما إذا علم عن قومها خلاف هذا أو جهل حالهم فإنها تكون محرمة على المسلم كغير الكتابية . وهذا الشرط يقضى بتحريم كثير من الكتابيات في هذه الأيام .

ومها يكن أمر الخلاف في صحة زواج المسلم بالكتابية فإنه لا خلاف بين أئمتنا في أن هذا الزواج مستثقل مذموم . وقد صرح الإمام مالك رضي الله عنه وغيره بأنه ثم محرم وإن كان زواجاً صحيحاً . وإذا كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد تزوجوا كتابيات فإن هذا لم يكن منهم إلا في حالة الضرورة ، فقد سئل جابر بن عبد الله عن نكاح المسلم اليهودية والنصرانية فقال : تزوجناهن زمان الفتح بالكوفة مع سعد بن أبي وقاص ونحن لا نجد المسلمات كثيراً فلما رجعنا طلقناهن .

ومع أن هذا لم يقع إلا من نفر يسير . وكان عن حاجة . وكان إبان حرب واغتراب . فإنه آثار نائرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه . فحينما بلغه هذا الأمر غضب غضباً شديداً . وهم أن يسطو على طلحة وحذيفة . وكتب إليهما يأمرهما بالمفارقة . وكان مما قاله : إنه يخشى أن يتركوا المسلمات ويقعوا في حبال الوضيعات ، ألا رحم الله أمير المؤمنين ورضى عنه وأرضاه فلو

أنه كان حاضر أمرنا لأعمل سوطه لادرته . ولوقتنا غضبته شرما نعانى من بلاء .  
فقد فشا فينا ترك المسلمات والزواج بالختالة من الأجنبية بعد أن تسلط  
الأجانب على المسلمين في أقطارهم . وارتحل أبناؤنا إلى ديارهم .

إن الفوارق بين المسلم وبين هذه الأجنبية فوارق جسيمة جداً لا يلتقيان معها  
فيها مفترقان في الدم واللغة وهو شرقى وهى غربية تخالفه في الإحساس والشعور  
وفي النشأة والتربية وفي الأخلاق والعادات والتقاليد .

ثم إنهم ينظرون اليوم إلى الشرقيين وكأنهم ينظرون من شاهق إلى الأغوار  
البعيدة . فمع كل هذه الفوارق ليس لأحد أن يرجى تحقق المقاصد التي شرع  
الزواج من أجلها .. ولا أن يرتبط هذان الزوجان بالرباط الروحي الصحيح .  
وما ترى هذه الأجنبية تغض عن كل هذا بدافع من المحبة الخالصة والولاء  
المقيم ولا نخالها إلا باحثة عن سداد من عوز بعد عوز بعد أن ضاقت عليها  
بلادها ، أو ملتزمة المتعة بالعيش الناعم وبلاد السحر والجمال . أو ساعية  
لاحتلال أصغر يكون نواة لاحتلال أكبر . ولئن قلنا إن من الأجنبية من  
يدفعها أول الأمر خالص الودّ فهذا لن يكون سوى أمر عارض لا يلبث أن  
يزول . وترى الطبع قد غلب التطبع وأن لنا في حوادث الماضي والحاضر لأبلغ  
العظات .

ولن ينال المسلم من هذا الزواج إلا لوثة في دينه . فمن حق هذه الأجنبية أن  
تأكل وتشرب في بيته ما هو حل لها ومحرم عليه . ومن حقها أن تؤدي فيه شعائر  
دينها . وبهذا تصبح حياته المنزلية خليطاً من إيمان وكفر . ثم من يدري ماذا  
تكون العاقبة ؟ وما الذي تجر إليه المجاملة أو يدفع إليه سلطان المرأة ومهما كان أمر  
ما بينهما من الروابط الروحية الحققة فإنه على أية حال مفتون بها وهو لا بد متودد  
إليها وفي هذا التودد نقصان دينه . وقال أصدق القائلين ( لا تجد قوماً يؤمنون

بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

ومتى اعتبرنا فتنه بها وبقومها . واعتبرنا شأن دولته ودولتها من ناحية السلطان والنفوذ واعتبرنا أنه في الأعم الأغلب لم يدفعه إليها إلا مركب النقص المشوب بسوء التقدير، أو رغبته في أن تكون عوناً له في الوصول إلى مآربه استناداً إلى سلطان قومها . . ، متى اعتبرنا كل هذا عرفنا كيف يكون سلطانها على بيته وسيرته . فهي مطلقة الإرادة في بيته وعاداته وتقاليده . ثم لا تزال تصنع به ما تصنع حتى تذوب شخصيته وتنحل قوميته ويصبح أجنبياً في وطنه .

ثم تأتي كارثة الأولاد وتربيتهم ، فهم في يدها عجيبة لينة طيبة تغرس في نفوسهم منذ الطفولة الأولى ما تحب وتهوى . ويألفون من أعمالها وسيرتها ما يطغى على تعليم دينهم ويطغى نور الإيمان في قلوبهم ، ويميت القومية في نفوسهم . فلا تلبث حتى ترى نسلأ هجيناً لا ياب له دينه . ويعتبر بحوثه . ويفخر بأقوام أمه . ويولى ظهره لآبائه وأجداده . ويتنكر لقوميته ووطنه .

وفي الزواج بهؤلاء الأجنبيات محاربة سافرة لفتياتنا . وجرح لكرامتهن على غير جرم ، وما يتغنى به بعض المفتونين من شبابنا تفضيله للأجنبيات عليهن ليس إلا خيالاً ووهماً وأباطيل في أضاليل .

وإذا ما تعارضت المصالح القومية كانت فطرتها حرباً على قومها، وعيناً لقومها عليهم ، ومن أجل هذا حرم كثير من الفقهاء القائلين بالصحة زواج الكناية الحربية ، ومن أجله حرمت الدولة المصرية كغيرها الجمع بين زواج الأجنبيات ومناصب السلك السياسي ، كما حرمت زواجهن على رجال الجيش . وسنت له عقوبات صارمة وليتها توسعت في هذا التحريم ، فالبلاد اليوم أحوج ما تكون إلى الرقابة .

يا قوم : لم يضيق الله علينا والفتيات المتعلقات الصالحات كثيرات فما لنا ولهذا الزواج المختلف في صحته وبطلانه المتفق على أنه ثقيل مذموم ؟ وما لنا وللزوجة التي حرمتها شريعتنا من حضانة أولادها متى عقلوا لأديان وما لنا وللزوجة .. لا تأمن دولتنا جانبا لا في سلم ولا في حرب ؟ ما لنا ولكل هذا ورسول الله ﷺ يقول ( دَعَّ ما يريك ) ؟

يا قوم إن سد الذرائع واتقاء مواطن الشبهات أصل عظيم من أصول ديننا ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه . فمن كان يؤمن بالله الإيمان الكامل وكان باراً بنفسه وولده . وقوميته ووطنه عليه أن يقوم المفتونين من شبابنا ، وعليه أن يجارب هذا اللون البغيض من الزواج ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

### حديث القرآن عن الأزواج والزوجات<sup>(٧)</sup>

( وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ) .  
 كما يطلق الزوج في الأعداد على مجموع الاثنين : يطلق على الواحد منها باعتبارها مكملًا لصاحبه زوجًا فلم يعد فردًا واحدًا .  
 وقد انبثقت الجماعة الإنسانية من زوج وزوجة كما نعلم ، ثم امتد هذا الأصل حتى كان محلقةً في الدنيا بالقبائل ، والشعوب ، ويملاؤون الحياة وهذا ما يجمعه القرآن في قوله تعالى : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل .. ) .

فإن تكن هذه الشعوب والقبائل فروعًا محدودة هنا وهناك ، فالأصل فيها زوجية بين ذكر وأنثى .

(٧) نفعات القرآن - الشيخ عبد اللطيف السبكي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

والقرآن الكريم يتجه نحو هذه الزوجية بشيء غير قليل من عنايته ، ويتحدث عنها في تصرفات متنوعة ، حتى ذكر لفظ الزوجية في الجانب الإنساني أكثر من خمسين مرة .. وسلك بنا في شأنها مسالك عدة : لنقف على وجهة الإسلام في شأن الزوجية من كل ناحية ، ونكون على تمام المعرفة بهذه القاعدة العمرانية التي أقيم عليها البناء الضخم في تكوين المجتمع البشرى عامة .

ويسير بنا حديث القرآن في اتجاهات أصيلة ، لا يقل أحدها عن الآخر : فهو يذكرها - أولاً - في سياق الامتنان بما فيها من بهجة واطمئنان ، منذ انعقدت الزوجية في صدر التاريخ بين آدم وحواء .. ومنذ جعل هذا الارتباط عيداً شخصياً للزوجين .. حتى جعل الله الوثام بينهما ، في ظلال الجنة : بين طيبات من الرزق ، وألوان من المتاع ، والغبطة ( وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ) .

وفي هذا التعبير إثارة للمسيرة في نفس آدم بأول متعة جنسية يصادفها .. وفيه إشعار له ولزوجه بأن الهناءة لا تكون في وحشة الانفراد ، وإنما تكون توافقاً بين الزوجين في استقبال الحياة المشتركة ، وتبادل البهجة ، والامتزاج في أنس الاجتماع والمجانسة في الميول ، حتى ولو في رحاب الجنة .

وذلك ما يصرح به القرآن في قوله تعالى :

( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ) .

( هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ) .

فالسكون هو الهدوء من الحركة ، والسكن الروحي هو الاطمئنان إلى الزوجة

وهدوء الخاطر بجانبها من شواغل الحياة في مجال الأعمال والكفاح .

وذلك سكون يلتمسه الزوج في مأواه الخاص به وبزوجته .

وفى ظلال هذا السكون يتوثق الرباط الزوجي ، وتأتلف العواطف ، وتنشأ المودة ، والتراحم بين الحليلين ( وجعل بينكم مودة ورحمة ) .

ثم يذكر - تانياً - زوجية الإنسان في معرض الامتنان بأننا نتاج لزوجية معقودة بين اثنين . وأن نَسَبنا في الإنسانية غير مدخول بما يشينه من سفاح ، وليس نتيجة لمجرد نزوات جنسية خاطفة ، كما يحصل بين الحشرات الدنيئة والحيوان والطيور . يقول تعالى : ( يأيتها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء ) .

فالأب واحد ، والزوجة مشتقة منه في أول وجودها ، ثم هي ثانية اثنين معه وفى هذا تركيبة ثانية للإنسان بتأكيد نسبه من طريقها المشروع .

ولعل هذا تلميح في قوة التصريح بأن العلاقة بين الجنسين ينبغي أن تكون على النمط المشروع من بدء الخليقة .

أما العلاقة الناجمة عن دوافع الغريزة وحدها : دون ضبطها بما يعتبر توثيقاً ففيها انحراف عن الأصل . وهى اندماج في الممجبة الهيمية .. وبعثرة للأنسب التى يراد الحفاظ عليها ، لتكون بذوراً صالحة لتنشئة مجتمع قوى البناء ( والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ) . فالزوجية الصحيحة هى التربة الخصبة لإنبات البنين والحفدة ، وهؤلاء هم السلسلة الإنسانية فى نظمها الصحيح .

وهم الذين يتشعبون إلى فروع شاحخة فى الآدمية الكريمة : لا يفض منها وضاعة النسب الملق على غير تنسيق مشروع ( وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهرا ) .

وإذا كان هذا كله تعزيزاً للإنسان ، وتكريماً له على كل ما سواه فى العالم الأرضي ، فكيف لا يكرم الناس أنفسهم فى تكوين أسرهم ، ومجتمعهم وكيف

بينون الأنساب على شبه من الباطل ، بعد أن عاهد الله خلقه بتشريعه للزوجية أن يبنوها على حق صراح .

إن الزوجية في نظر الدين، وفي نظر الواقع من حياتنا كمال ضروري للإنسان : رجلا أو امرأة .. فإن الانفراد شقوة كما نشهد ، أو هو على الأقل نقصان في المتاع حتى ولو كان في الجنة .

وإن الزوجية حصانة من مطاوعة الغريزة في جموحها .. وفيها درء للشبهة وفيها وقاية للسمعة من قالة السوء .

وإذا كان جسم الإنسان بحاجة قصوى إلى لباس يقيه البرد والحر ، وعاديات الهوام ، ويضفي عليه جمال المنظر ، حتى لا يكون شبيهاً بالحيوان في ابتذاله ، وتكشف سوءاته . فإن القرآن يعتبر الزينة وقاية للإنسان من وساوس الشيطان في حياة العزلة ، ويحفظ عليه ثقة الناس من ناحية العفة ، والصيانة ، والاعتصام بالكرامة .

وهذا ما عناه القرآن فيما نفهم من قوله تعالى عن الزوجات : ( هن لباس لكم ) ومن قوله تعالى عن الأزواج : ( وأنتم لباس لهن ) .

فكل من الزوجين وقاية للآخر من نقائص كثيرة ، كما يقيه اللباس من أضرار حسية ، وكل من الزوجين حلية وجمال للآخر ، كما يكون اللباس حلية ، وجمالا للإنسان .

ومما يشير إلى ذلك قول الرسول ﷺ من تزوج منكم فقد حفظ نصف دينه ، فليتنق الله في النصف الآخر . يريد النبي ﷺ أن نصف الدين في صيانة العرض بالعفة الجنسية .

وهذا جانب إنساني يستوى فيه الأنبياء وغير الأنبياء ، على ما هو مفروض

من عصمة الأنبياء عن الزلل . ولكن الطبيعة البشرية لا تقي إنساناً عن قضاء الوطر ، إلا لسبب مانع .

وإذا كان في الزيجة كمال شخصي ، فحمد ﷺ - أولى بأوفر نصيب من الكمال . وهو لم يكن بدعاً من الرسل في هذا ، ولا في غيره .

وكانت شرائع الأنبياء قبله تجيز الجمع بين عشرات من الزوجات ، ومحمد لم يبلغ في هذا مبلغ أحدهم - كداود وسليمان - عليها الصلاة والسلام .

( ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ) .

هذا ، ولم تكن العزوبة كمالاً في رسول غير يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم - عليها السلام - وطبعاً ذلك لحكمة تلائم ظروفها عند الله .  
وفرق ما بين الاثنين أن يحيى من أبوين ..

وأما عيسى فمن غير طريق الزوجية البشرية المعهودة .

ومع ما وضح من مباحج الزوجية في الحياة الدنيا فإنك تجد الكتاب العزيز يشيد بها في اليوم الآخر : فإن الله سبحانه - يسوق إلى عباده المؤمنين ، بشراهم بتحقيق ما وعدهم في قوله يوم القيامة : ( ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ) وليس هذا فحسب ، بل يعد الله عباده المتقين بزوجات من نساء الجنة - الحور العين .

( للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ) ( وزوجناهم بحور عين ) .

( وعندهم قاصرات الطرف أتراب ) .

( وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهن بيض مكنون ) . ( كأنهن الياقوت

والمرجان ) إلخ .

وإذا ربطنا أول الحديث بما وصلنا إليه وجدنا نعمة الزوجية ومتاعها مبدوءة في الجنة بين آدم وحواء .

ثم تمتد ، وترافق الإنسان في دنياه ، حتى تكون واصلة إلى نعيم الجنة إن كان مؤمناً في حياته .

وحدينا عن الزوجية في الدنيا إنما نعني به الزوجية البريئة من الزيف، ومن كل خصيسة يأبأها الدين ، والنبي ﷺ يقول : الدنيا متاع ، وخير متاعها الزوجة الصالحة .

والزوجية على هذا النحو مرجوة بين الزوجات الطيبات ، والأزواج الطيبين ، ولا مطمع فيها بين الزوجات الخبيثات والأزواج الخبيثين .

وما ينبغي لمن عرف شأن الزوجية وخطرها أن يتجه رجل طيب إلى زوجة خبيثة فإن الله يقول : ( الخبيثات للخبيثين ) فكلاهما أشبه بالآخر . وكذلك ما ينبغي أن تتجه امرأة طيبة إلى زوج خبيث .. فإن الله يقول : ( والطيبات للطيبين ) وكلاهما أولى بالآخر .

والزوجية مع الحيطة في الاختيار تتعرض لهزات قد ينيرها اختلاف الميول، أوتيرها تعثر الإنسان.

لذلك وضع الله لنا وقاية من سهام الشيطان ، فأوصانا بحسن العشرة والترفق بالزوجات وأن نحتكم إلى عدول نختارهم من الأقارب ، أو من في حكمهم لإصلاح ذات البين ، حتى لا تنهدم الحياة الزوجية لأي نفخة ينفخها الشيطان في عقدة الزواج بعد أن وثقها الله بين الحليلين .

فإن لم يكن للإصلاح أثره المنشود في الإمساك بالمعروف ، فليكن تسريح بإحسان ، والفرقة خير من العيش على كراهية وعناد ( وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ) .

ونحن نرى في سياق الحديث أن القرآن يترفق كثيراً بالمرأة، ويجعل الرجل على الترفق بها حتى في ساعة الكُرْه ، واحتدام الخلاف فيصرفه عن الشطط في كرهها ، ويبعث في نفسه الأمل من جانبها ليرضى بها ، ويصبر على ما يكون منها ( فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ) .

ثم يوصيه حين الفرقة بالألا يحيف عليها في حق من حقوقها ( وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتن إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاً وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ) .. عهداً قوياً .

وهذه توصيات مسبقة بمثلها في صدر التعاقد الزوجي . لا يدخل الزوج في عقد الزواج إلا على ترفق بالمرأة .. وتحفظ من ظلمها في شيء . ( فانكحوهن بإذن أهلن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ) .

فذلك كله حفاظ على المرأة أن يخدعها الرجل فيستبيحها في مراد من غير زواج مأذون فيه من الأهل ، أو يستغل سداجتها في هضم صداقها ، أو يكون عقده عليها فيه مواربة واحتيال ، فذلك أشبه بالمخادنة أو السفاح .  
وحيلة لهذا : اشترط الإسلام علانية الزواج ولو أمام اثنين فقط من الشهود العدول .

ونرى القرآن ينعطف بالحنو نحو الزوجة كثيراً فيصرح بأنها سكن للزوج وبأنها منبت الأولاد ، وبأنها متعة له ، حتى في الجنة إلخ .  
هذا موجز من القول عن الأزواج والزوجات .. وعن تقدير الإسلام للمرأة وإشاداته بما لها من شأن في بناء المجتمع، وفي الحياة الخاصة وما يجب لها

على الرجل من رعاية ومن هذا الإيجاز تكون المرأة سامية في الإسلام ، وفوق  
المكانة التي يفرضها الزاعمون الذين يخطئون في فهم الوضع الصحيح للمرأة في  
القرآن .

وأنت ترى مزاعم كثيرة يرددها من لا يعرفون أو يعرفون ويتجاهلون ...  
هداهم الله ، وزادنا إيماناً وحسن تطبيق .

\* \* \*

.. ولم يكن حديث القرآن في هذا الشأن مقصوراً على من ذكرنا لك من  
إشادة بالزوجية وبيان أثرها في تقويم المجتمع . بل إنه أولى الأسرة كل عناية  
وجعل الأبناء الصالحين هم الغاية .. كما سنبين في الصفحات التالية .  
وأول ما يأخذ به القرآن في ذلك : هو عنايته ببناء الأسرة من أول  
تكوينها على أساس سليم .. فهو يهيب بنا أن نبتعد عن سوء الاختيار للزوجة أو  
الزوج ، قبل أن تتورط في الزيجة ، ونتعثر في عقباتها .  
فيلفتنا إلى ناحية كانت مستساغة قديماً ، ولا تزال مستشرية في بعض  
البيئات كالمريض الفتاك .

وهي مطاوعة الشهوة البهيمية في التزوج بمن لوثنه جريمة الزنى وعرف بها ..  
ففي الإقدام على ذلك تهاون في بناء الأسرة وتطويح بها إلى مهاب الظنون .  
والله تعالى يقول في ذلك : ( الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة ) .  
ولفظ « ينكح » يراد منه العقد الزوجي .. أو الوطء ، كما تتسع لذلك  
اللغة ، والقصد على أى المعنيين تشنيع ، وتقبيح لجريمة الزنى ولشخصية الزانى ،  
حتى لا ينبغي لامرأة حصان أن تتزوج برجل زان ، فإن شأنه أن يرغب في من  
هى على شاكلته ..

وتزوج العفيفة به معرة عليها ، وخسة لها ، فلتعرض عن زواجه ، تحقيراً

له ، وترفعاً بنفسها ، وصيانة لعرضها أن يملكه الزاني المبتذل .. وليذهب إلى زانية مثله ، أو مشرقة تستبيح الجرائم كلها . كذلك شأن الزانية ( لا ينكحها إلا زان أو مشرك ) .

فلا ينبغي لرجل كريم على نفسه أن يرغب في الزواج بزانية ، وإنما يرغب فيها من كان على شاكلتها في الفساد .. وترديد الأسلوب من جانب الزاني مرة ، ومن جانب الزانية مرة ثانية لتأكيد هذا التوجيه ، كما أكده بأسلوب الحصر ، حتى كأنه لا يصح تزوج زان ولا زانية إلا بمثله ، ولا يرضاه غيرها ، لما فيه من الحساسية. وجرح الكرامة .

وإذا كان لفظ ينكح قاصراً على مجرد الوطء كان القصد تشنيعاً على الزناة، لا بياناً لتشريع الزواج بهم.. وذلك وجه لا بأس به، ولكن حمل هذا اللفظ على عقد الزواج أوفى بالأغراض كلها: من تشنيع وتنفير من الزواج.. إلخ. ثم انظر ثانيًا ..

تجد للقرآن مجالا آخر في البعد بالأسرة عن مواطن الزلل ، والحرص على تكوينها في إطار من الطهر والطمأنينة .

فلا يجعل الله تحذيرنا من الزواج بزنان ، أو بزانية فحسب ، بل يفسح وعينا لما هو أبعد من ذلك فيقول تعالى :

( الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ) فإن يكن الخبث وصفاً للكلمات السيئة وأنها لا تكون إلا من خبيثاء ممقوتين ، فإن المرأة الخبيثة داخلية في هذا الوصف دخولا أولياً ، وأولويًا .

وهذا تشنيع على أهل الخبث بالزنى أو بغيره من خصال السوء ، وقبيح الأخلاق .. والمسالك المعوجة ، والأصول الوضيعة التي لم يرفع من شأنها دين ولا تهذيب .. فالمرأة الخبيثة لا ينبغي أن تتعلق بها الرغبة في الزواج لمن كان ذا

تكرّم لنفسه وواعياً لحرثه ونسله وإنما تكون مرغوبة لدى الخبيثين مثلها من الرجال .. وهذا توجيه للرجل أولاً : لأنه عادة يندفع بهواه إلى المرأة فاحتاج إلى توعية من غواية نفسه .

وكذلك كان التوجيه للمرأة ( والخبيثون للخبيثات ) ، يعنى أن الرجل الخبيث لا يرغب فيه إلا المرأة الخبيثة ، فلتزهد فيه من كانت عزيزة على نفسها ، وكريمة في قومها .

وفي كلا التعبيرين حط من شأن الخبثاء ، عن مستوى الاختيار للزيجة ، فإن الزوجين أصول ، والذرية فروع لها ، والأسرة كلها كحقل واحد يراد تنقيته من الطفيليات والآفات ليكون كله نضراً يعجب زراعه ، وغير زراعه .  
ومن أجل هذا كان من توعية الرسول - ﷺ - لأمته فيما أثار عنه :  
« تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » .

ويقول الشاعر :

وهل تنبت إلا في مغارسها النخل ؟

والفقههاء يراعون ذلك في اعتبارهم الكفاءة بين الزوجين ، حتى جعلها بعضهم شرطاً في صحة العقد .. والقرآن الكريم يقرن هذا التوجيه السلبي بتوجيه إيجابي ، فيقول تعالى : ( والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ) .

فهذا ترغيب حثيث في اختيار الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ، وكذا في اختيار الطيبين من الرجال للطيبات من النساء .

فذلك كله تسوية للأوضاع ، وتوعية دينية واجتماعية في أمر خطير كثيراً ما تطيش به الرغبات ، ويجرفنا تيار الشهوة في جهال ، أو في مظهر لا يكون في حصانة من خلق، ودين، وتكون الحياة بعد ذلك في أن سخط وضرر الزوجية يكون أكثر من نفعها ، ولعل ذلك التسامح وراء المطامع والتزوات هو السبب

غالبًا فيما يشاع بيننا من تبرم بالحياة المتزلية ، ومن سخطة نفسية تتقد جمراتها بين جوانح الزوج أو الزوجة ، فتصدع أواصر الزيجة والنسب ، وربما تبدلت راحة الحياة بذرية لم تكدها بنصيب من رفاهية الطفولة في أحضان الأبوين فيستطير الشر ، وتتأثر العداوة ، ولا يسهل تدارك ما فات ، بعد أن تمكن الشيطان من وضع يده ، ونفث سمومه .

كل ذلك : قصص توجيهي نحو ما ينبغي في تأليف الأسرة ، والتحرى في تكوينها .. أكثر مما تتحرى في شئون لا يبلغ خطرها مبلغ ما تحدث عنه القرآن في مثل هذه العناية بالأسرة .

ولقد امتدت بنا الآية إلى ذكر الطيبين من عترة النبي ، ومن كانوا يعيشون في ظلال النبوة ، فيقول تعالى في الإشادة بهم ، وإنيهم الطيبون الذين تنزهت سيرتهم عن شوائب الريبة .

وينبئ عنهم ما كان يرجف به المرجفون من الكفار والمنافقين ( أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ) .

هؤلاء من أصول كريمة ولم يتسرب إليهم سوء الاختيار الزوجي ، فلا تلحق بهم شبهة التشيع الذي انحدر إليه أولئك السفهاء .. بل هؤلاء لهم عند ربهم مقام الرضا ، ولهم الرزق الكريم في جنات الله الواسعة .

وذلك تنويه بشأن عائشة - رضى الله عنها - وعن أبيها الصديق . ويقول العلماء تعليقاً على ذلك إن يوسف عليه السلام لما رمى بالفاحشة كذباً عليه ، برأه الله على لسان صبي في المهدي .

وإن مريم لما رماها اليهود بالفاحشة برأها الله على لسان ابنها عيسى صلوات الله عليه .

وإن عائشة لما تناول المنافقون بالكذب عليها برأها الله تعالى بالقرآن ، فما

رضى لها ببراءة صبي ، ولا نبي ، حتى برأها بكلامه - سبحانه - تلك البراءة التي تكفل الله بها في آيات عدة من سورة النور ، وبين فيها أن ذلك الإرجاف لم يكن في حقيقته شرًّا بعائشة بل هو خير في تقدير الله .

ومن هذا ندرك ما يكون لكرائم النساء من طهارة العرض ، والبعد عن الشبهات والبراءة من أراجيف الخبثاء .

ولنا أن نفهم في صواب أن القرآن يفيض علينا بتعاليمه ، فيقضى آياته ، ويضرب لنا الأمثال من واقع الحياة ، لتقتدى ولتزداد إيماناً .

### الأسرة في التشريع الإسلامي (٨)

عنى التشريع الإسلامي بالأسرة أتم العناية وأكملها . فوضع لها من أحكام الحقوق والواجبات والآداب ما يكفل لها إرساء الدعائم . وسلامة البنين والحياة الطيبة المباركة ، ويهيئ منها عضواً سليماً صالحاً لأن يؤدي وظيفته أداء كاملاً للمجتمع الإنساني الذي نعيش فيه .

وأحكام الأسرة تعالج أموراً سداها ولحمتها الإحساس والعاطفة ، وتقوم أكثر ما تقوم على المشاعر والروابط النفسية . وهي في الأغلب من الأمور الدقيقة الخفية . وكثير من هذه الأحكام لا ينفع الجهر في حمل الناس على امتثاله ، ولا يكفل له السلطان والسيادة سوى الإيمان والعقيدة وتهذيب الأخلاق وتقوية الوازع الديني ومحاربة الآراء الهزيلة والتزعجات الآتمة . ودعوة الناس إلى اتباع دينهم الحق، وإرشادهم إلى سواء السبيل.. وقد تحدثنا فيما سبق عن أن الزواج حجر الأساس. والدعامة الكبرى التي تقوم عليها بناء الأسرة. وقد

(٨) فضيلة الشيخ محمد أحمد فرج السنهوري .

أمر به الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من الكتاب الكريم . وأشار فيه بالقول الجامع الحكيم إلى مقاصده . وشجع الهيايين على الإقدام عليه .. ونهى عن وضع العقبات في طريقه . وامتن به على رسله وسائر عباداه .

ورسول الله ﷺ - وما ينطق عن الهوى - قد أكثر من الأمر به وبالغ في الحث عليه . وأكد أن عون من يتبغيه حق على الله ، وفاخر بأنه سسته وأعلن براءته ممن يرغب عنها . أو يتركها خوفاً من الفقر والعيلة .

وقد اختلف الأئمة والفقهاء في شأن هذه الأوامر ، فذهب فريق منهم إلى أن الزواج سنة محكمة . وفريضة واجبة على كل من يستطيعه وإن لم يخش زلة ولا فتنة . وذهب الباقون إلى غير ذلك من الآراء والتفصيلات . وأياً ما كان أمر هذه الأقوال فإنهم قد أجمعوا على أن الزواج رغبة من أفضل الرغائب وهدى إلهى نبوى يجب الحرص على إحيائه .

والتشريع الإسلامى لم يأمر بالزواج ، ولم يبالغ في الحث عليه إلا لأنه السبيل الوحيد إلى الحياة الهانئة السعيدة ، فهو وحده الذى يكفل للرجل والمرأة على السواء حياة يسودها سكن النفوس ، واطمئنان القلوب وتتوافر فيها الثقة المتبادلة . وهو وحده الذى يكفل لها المودة الخالصة والمحبة الصادقة . وهما أسس الروابط المتينة وهو وحده الذى يكفل لها التراحم والتعاون في السراء والضراء . ومتى قامت الحياة على هذه المشاعر كانت كلها خيراً وبركة لأهلها ولأقوامها .. ثم هو وسيلة لحفظ النوع وخلق جيل صالح ينشأ في كنف الفضيلة، وحنان الأمومة ورعاية الأبوة هذا إلى ما فيه من تعويد رب الأسرة على الاضطلاع بأعباء الرعاية وتحمل المسئولية ومشقاتها في جرأة وإقدام . وهذه كلها فضائل ولذا تاذ روحية لا يحفل حصيف في جانبها بأى ألم مها كانت قسوته . وهذه التعاليم الإسلامية قد سرت في نفوس المسلمين منذ العصور الأولى

فرعوها حق رعايتها وأطاعوها في السر والعلن عن إيمان خالص . وعقيدة صادقة لا فرق في هذا بين باد وحاضر . وقد بقي أهل القرى على العهد بهم فلا سلطان على نفوسهم إلا للوازع الديني وما يحيط بكل منهم من الاعتبارات والظروف ، بل أسرف بعضهم في الإقدام على الزواج . فزوجوا الأطفال ومن هم على شاكلتهم ممن لم تؤهلهم أجسامهم وأعمالهم وخبرتهم للحياة الزوجية . حتى اضطر الشارع المصرى إلى التدخل وتحديد سن الزواج . ومع هذا لاتزال طائفة منهم تعمل على الإفلات من أحكامه .

أما أهل المدائن فقد وفدت عليهم من الأقطار الأخرى أفكار مادية بحتة ونزعات خبيثة ، فعلت فعلتها في نفوس فريق منهم فأنستهم تعاليم دينهم وأنستهم اللذات الروحية وجالها وجلالها ، وأنستهم كل شيء إلا المادة وما يدور حولها ، وقد برز من بين هذا الفريق طائفتان .

أما إحداهما فإنها تدعو إلى العزوبة المطلقة . وتنشئ الأندية باسمها وهى لا تدعو إليها باسم التبتل والعبادة . بل من أجل المرح والتخلى عن التبعات ، وتقول مالى وما للزواج والتوالد ؟ ولم أتحمل عناء الزوجات وهموم الأولاد ؟ ولم لا أمتع وحدى بجهودى وثمرات أعمالى ؟ إلى غير ذلك من الأقاويل التى لا تصدر إلا عن إباحى لا يأبه بالدين . ولا يبالى بمخلق كريم .

وأما الأخرى فهى طائفة المعوقين . الذين يدعون إلى إرجاء الزواج حتى يتسع الرزق ويكثر المال بحيث يضمن عيشاً رغداً . وأهل هذه الطائفة قد ألبسوا دعوتهم ثوب الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى . وأفاضوا فى الإشفاق على العالم وموارده . وظهر من بينهم من يدعو إلى وضع العقبات من طريق التشريع . بل لوح بعضهم بالعودة إلى فتح بيوت البغاء الرسمى .

وأهل هذه الطائفة ليسوا من دين الله فى شيء . فهم لا يثقون بوعد الله

( إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ) . ولا يثقون بوعد رسوله « ثلاثة حق على الله عونهم . وعد منهم الناكح يريد العفاف » ويتحدونه جهرة في قوله : « من امتنع عن الزواج مخافة العيلة فليس منا » وهم يجمعون إلى ذلك الجبن والفرار من تحمل أعباء الرعاية . والقيام بالواجب الإنساني . كما يجمعون إليه الدعوة إلى الرذيلة .

وإذا كانت دعوة أهل هاتين الطائفتين لم تبلغ المدى الذي يرجونه فلا ريب في أن ما أحدثته من أثر . قد انضم إليه انحراف بعض الناس عن القصد الأسمی للزواج، وعوامل أخرى، فقد نساب عن كل هذا في المدائن وما إليها حالة غير مرضية، أطلق عليها بعض الباحثين اسم « أزمة الزواج »، ودعا إلى علاجها من طريق التسريع أو طريق العسوبات أو فرض ضرائب على المعرضين على الزواج وحرمانهم من بعض المزايا.

وعندي أنه لا توجد حتى الآن أزمة زواج بالمعنى الصحيح . وما يوجد حتى الآن لا يعدو أن يكون حالة ركود بين طائفة معينة . أما الأزمة الحقيقية التي يجب الإسراع في اتقاء شورها فهي التزعات الخبيثة . والدعوة إلى الإعراض عن الزواج .

ونصيحتي إلى هؤلاء... أن يتدبروا الأمر، ليتبينوا أن أى تشريع يتدخل في هذه الشؤون الحساسة الدقيقة لا يغنى شيئاً، وأنه مهما بالغ واضعه في إحكامه سيكون تشريعاً ظالماً، إثمه أكبر من نفعه.. إذ الناس في هذا الأمر جد مختلفين، لكل ظروفه وعاداته وضروراته.

وعلى من يريد الإصلاح حقاً أن يعمد إلى النفوس فيهدبها ويغرس فيها الفضيلة . وإلى الوازع الديني فيوقظه من غفوته . ويعمل على تقويته . ثم يترك الناس لشئونهم يصدرون فيها عما تمليه عليهم صواحلهم ودينهم . هذا هو طريق

الإصلاح الصحيح الذى تجرى به الأمور مجراها المستقيم وتموت معه التزعات الخبيثة.

والأسر هي المجتمعات الصغيرة والخلايا التي يتكون منها بناء المجتمع الكبير يسعد بسعادتها ، ويشقى بشقائها . ويصح بصحتها ، ويمرض بأمراضها وقد قام التشريع الإسلامى على هذه المعاني في صورة واضحة مكتملة قل إن اكتملت في غيره . وكان سباقاً إلى تحقيقها من جميع جوانبها فعنى بها أتم العناية وأكملها . ووضع من الأحكام والآداب ما يكفل لها الدعائم الرأسية المكيّنة . والبناء القوى المتين . وسلك سبيلاً قويمًا يجعلها أعضاء سليمة مكتملة للمجتمع الإنسانى . تؤدى وظائفها الأداء الكافى الوائى .

وقد امتلأت آيات الكتاب الكرم والسنة النبوية بالدعوة إلى بناء الأسر وإرساء قواعدها على أن يقوم بناؤها على أساس سليم من المقاصد التي يبتغيها وهي مقاصد سليمة ترمى إلى سعادة الإنسانية وسعيها إلى الرقى والكمال . وهي الإحصان والعفاف . وسد الذرائع . ومقاومة الفساد . والقضاء على فوضى الاختلاط . وتهيئة حياة هانئة سعيدة لأفرادها تسودها الثقة والاطمئنان والتعاون وتحمل الأعباء في مودة وتراحم . وخلق جيل صالح يشب في جو من مكارم الأخلاق . وابتعد بها عن المتعة المجردة الجسمانية . وعن الحياة المادية المرذولة . وتوعد من المحرف عن هذا السبيل القويمة بانتكاس الرجاء وخيبة الأمل . فهذا رسول الله ﷺ يقول « تزوجوهن على الدين ، ولأمة حرساء سوداء ذات دين أفضل » ، ويقول عليه الصلاة والسلام : من تزوج امرأة لعزها لم يزد الله إلا ذلاً . ومن تزوجها لماها لم يزد الله إلا فقراً . ومن تزوجها لحسبها لم يزد الله إلا دناءة . ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن

فرجه . أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » ويقول : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاتر بكم الأمم » .

وقد أرشد الله جلّت حكمته إلى الحياة الروحية التي يجب أن تسود الأسرة بقوله : ( ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) .

ولما كان تحقق هذه المقاصد السامية واستقامة أمور الأسرة وقيامها بواجبها الاجتماعي لا يمكن أن تسير في طريقها القويم إلا إذا تساوت دعاماتها : الرجل والمرأة وتمكن كل منهما من القيام بواجبه . وأحس بالعزة والكرامة وأمن جور الآخر ويطشه . جاء التشريع الإسلامي فاستحيا المرأة مادياً وأديناً واجتماعياً . ورفع شأنها ، وأعز مكانتها . وكفل لها أهلية كاملة كأهلية الرجل ، وفرض لها من الحقوق المالية ما يتلاءم مع تبعاتها . وقامت حقوقها فيه على أصل ثابت هو المساواة . بإعطاء كل منها ما يلائمه ويحسن القيام به . ويمكن لها في الأعمال الاجتماعية على شريطة ألا يخل ذلك بواجبها في الأسرة وتبعاتها كزوجة وأم . وقد أوجب التشريع الإسلامي أن تسود الأسرة التربية الدينية التي تفرس في النفوس العقائد السليمة الراسخة . وتربيتها في جو من الإيمان الصحيح . يحملها على التزام طاعة الله وامتنال أوامره واجتناب نواهيه . وبحلها بمكارم الأخلاق لا رياء وسمعة ولكن ابتغاء رضوان الله . ويدعوها إلى مراقبة الله وحده وخشيته في السر والعلن . ويهذب النفوس ويكبح جماحها . وينشر بين الناس احترام الحقوق وحب الخير . لا عن خوف ورهبة ولكن عن طاعة وورغبة . والتربية الدينية مصدر الخير والبركة . وسبيل السعادة في الدنيا والآخرة . وإذا فسدت هذه التربية وأهل شأنها ضعف الوازع الديني أو مات فالعفاء على سعادة الناس واستقامة أمورهم .

وقد بلغ التشريع الإسلامى الغاية فى الدعوة أن تسود مكارم الأخلاق أعضاء الأسرة كواجب دينى لا يحل التهاون فى أدائه ولا فى إقامته . فقد روت أم المؤمنين عائشة ومعاذ وأبو هريرة رضى الله عنهم : أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال : « لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها . ولا تجد امرأة حلاوة الإيمان حتى تؤدى حق زوجها » ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها وأطاعت بعلمها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت » .

وقد ألزمها الله سبحانه أن تتأدب بآداب الدين وأن تتحلّى بالحشمة والوقار فى نظراتها وفى لباسها وزينتها فقال عز من قائل ( قل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین زینتهن إلا لبعولتهن) - الآية - وقال عليه الصلاة والسلام : أمر الله جلت حكمته أن يعاشر الرجال نساءهم بالمعروف . وقال صلی اللہ علیہ وسلم : « الله الله فى النساء » قال « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا . وألطفهم بأهله » وقال : خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي » وقال : « إن من الغيرة ما يحبه الله ومنها ما يبغضه الله ومن الخيلاء ما يحبه الله فأما الغيرة التى يحبها الله . فالغيرة فى الريبة . والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة » . وقال عز من قائل :

( وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولًا كريمًا . وانخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا ) . إلى غير ذلك من الآداب ومكارم الأخلاق التى تكفل للأسرة حياة صالحة وسعادة سابتة .

## طموح الأنبياء إلى البنين<sup>(٩)</sup>

( هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ) .

ينساق إلى بعض الأذهان أن الرغبة في الذرية ظاهرة لحب الدنيا ، ويعيون على أى إنسان أن يبغى الولد ليكون ذكرى والديه وعتاد أهله ويرون الحنين إلى الخلف محاولة للبقاء في تلك الحياة ، فإن لم يكن بالذات فليكن بالخلف . وكل ذلك عند هؤلاء المتزهدين مشغلة عن الآخرة ، وتشبت بأعراض الحياة ، وهذا هو أو أشبه باللهو ، واللهو كله ليس شيئاً في حساب الأتقياء - هذا ما لديهم من تعللات ..

وهناك آخرون من عشاق التقاليد ، يتحاشون إنجاب الأولاد خشية أن تثقلهم التكاليف ، وتزدحم بهم متع الحياة الزوجية ، فهم لذلك يجمعون عن الزواج ، أو يستخدمون الوسائل المحظورة في التخلص من إنجابهم . ويفوت أولئك المتزهدين أن حب الولد فطرة في الإنسان ، وفي كل نفس حية ، وأنها نزعة طبيعية امتزجت باللحم والدم وهي ما يسمونه « غريزة بقاء النوع » أو نحو ذلك مما اقتضته السنة الكونية . وفاتهم كذلك أن الدين الحق لا ينافي الفطرة ، وأن الفطرة السليمة لا تنأى عن الدين ، ولا تشاقه ، وكيف يكون بين الدين والفطرة السليمة عناد ، وكلاهما من صنع الله الذى أتقن كل شىء ؟

وكذلك صح عند الذين يقاومون الفطرة ويتأثرون بالتقاليد، أن هذا الاتجاه

(٩) فحات القرآن : الشيخ عبد اللطيف السبكي . ( سبق الإشارة إليه ) .

لا يستقيم، ولا تستقيم عليه النظم الكونية بل لا تستقيم عليه الحياة الشخصية، فإن الإقلال من إنجاب الأولاد مدعاة لانكماش الدولة ، وانتقاص الجماعة ، ومن دواعي النهوض في الدولة أن تعمل على الكثرة ، وبجانب ذلك اعتبار آخر هو أن المرء يتلى في ولده فيصبح بعد ذلك محروماً يقاسى لوعة الحرمان أو على الأقل يعيش غير مستأنس بأبنائه بحكم الفطرة أعوان في الحياة.

وإذا كان حب الولد فطرة فليس أطوع للفطرة من صاحب دين خالص ، فما بالك بالأنبياء وهم صفوة الناس طباعاً وأرجحهم مدارك وأكملهم إنسانية ؟

أراد ربك أن يرسم لنا في المنهج الديني طواعية المرء للفطرة في حب الولد ، واتخاذ السبيل إليه ، فساق إلينا حديث الأخيار من عباده لنتلمس فيهم القدوة ونتلقى عنهم الوسيلة ، وفي ذلك ما يدفع الشبهة الكاذبة التي تتخالج المترهدين ، أو تجرى في أفواه الأذعياء ، وفيه أيضاً إيقاظ لعاطفة الأبوة الكامنة في النفس والتي يحاولون كبتها أو الضغط عليها بالجحوج إلى التقاليد المصطنعة .

وهذا زكريا نبي الله عليه السلام ، بلغ من العمر ما بلغ ، وفات زوجته أو أن الحمل ، وأصبحت عاقراً لا تطمع في المخاض .

ولكن الأمل والحتمين ، وتحكم الفطرة ، ودافع الغريزة .. كلها لا تدع زكريا يستسلم لليأس من الولد أو الزهادة فيه ، كما أن دينه الحق لا يمنعه أن يدعو إلى الله ، ويطلب باب الرجاء في فضل مولاه بالدعوات الصالحات أن يرزقه الذرية ، وهو إذ يلج في دعواته بالذرية مطواعاً لفطرته ومستأنساً بتوجيه دينه ، إنما هو جانح إلى البشرية في خصائصها البارزة ، وغير لاثند إلى مزاعم المتجردين ، من أن التبتل المتعمد من كمال التدين ومن شعار الأصفياء ، نعم ليس كذلك - فزكريا حينما وجد مريم تعيش في كنفه ، وتكلمها رعاية الله ،

فيأتيها الرزق من حيث لا يدرى هو ، ومن أصناف لا يعهدا في وقتها ، ولا في جودتها ونضجها ، يجيش الأمل في نفسه ، وتثور عنده الرغبة في الذرية - فيضرع إلى الله منادياً ( رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ) . وماله لا يدعو وقد سمع من قبل ما دعت به أم مريم ثم رأى بعينه كيف استجاب الله لها في مريم وكيف يجرى كرم الله على مريم .

وإذن ، لا يبعد على الله أن يستجيب له ، وأن يرزقه ، وأن يكون ولده أحدوثة العجب والقدرة ، كما كانت مريم وابنها أحدوثة العجب والقدرة .

والقرآن يحكى أن زكريا دعا ربه في صبيغ عدة ، فرة يقول : ( رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين ) .

وأخرى يقول : ( رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ) . وثالثة يقول : ( رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً ) .

وهل كانت تلك الدعوات أو ما هو أكثر منها وفي معناها متعاقبة في وقت واحد ؟

فهم بعض المفسرين هذا من قوله تعالى : ( هنالك دعا زكريا ربه ) وقوله بعد ذلك : ( فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ) فإن نداء الملائكة له بالبشرى وقع وهو في مقامه من محراب مريم ، وجاء مقرونا بالفاء الدالة على القرب ، ثم اقترن بواو الحال في قوله : ( وهو قائم يصلي في المحراب ) .

فكانه لم تمض مدة بين الدعاء والإجابة من الملائكة . وآخرون من المفسرين يرون بعد الإجابة عن الدعاء بأزمة طويلة لذلك كرر دعواته ولم تكن في وقت واحد ، وأما التعبير بالفاء في قوله : ( فنادته الملائكة ) فلا يقصد منه

اقتران التلبية بالدعاء ، وإنما قصد منه الدلالة على القرب في الوقوع حتى كأنه اقترن بالدعاء .

وكيفما كانت التلبية ، فقد تكررت روايتها في القرآن ، ففي سورة آل عمران ( أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيداً وحضوراً ونبياً من الصالحين ) وفي سورة مريم ( يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ) فالبشرى آذنت زكريا بأوصاف ربما كانت أكثر مما يرجو ، فإنه طلب ذرية طيبة ، وفسر الذرية بأن تكون ولياً يرثه ، ويرث من آل يعقوب ، وليس له من ميراث سوى البركة ، والدين ، والخلق ، وأن يكون خلفاً طيباً لسلف طيب ، يقوم بالهداية ، والإصلاح ، حتى لا يكون الأمر فوضى بين الأقربين لزكريا من أشرار بني إسرائيل يتكالبون عليه ، ويتنازعونه بعد وفاته هو . وبهذه البشرى قوى الأمل في نفس زكريا ، وألحت عليه التزعة البشرية في التعجب ، كيف يكون له ولد عرفه الآن باسمه يحيى ، وعرفه بصفاته ، بأنه لم يسبق إلى هذا الاسم ، وبأنه مصدق بكلمة من الله ، يعنى مؤمناً بنبي آخر يكون كلمة من الله ، وهذا تبشير بعيسى - ولم يكن عيسى ولداً - وعرفه بأنه سيكون سيدياً في قومه ، وحضوراً عن النساء - وكانت هذه محمودة في زمنه لأشخاص معينين - وعرفه فوق ذلك كله بأنه سيكون نبياً من الصالحين للدين والدنيا ، وفي نفسه وفي قومه .

كيف يكون له ذلك الولد ، وهو لا يعهد في مثل زوجته أن تلد ، وهل سيكون الولد منها ، أو من زوجة سواها ، ولم يعد في عمره متسع للاقتران بأخرى بعد ؟

ولكن الله سبحانه يزيده طمأنينة ، ويؤكد له البشرى بما يعجب من حصوله ، فتناديه الملائكة ثانياً : ( قال كذلك قال ربك هو على هين ) الأمر

كما سمعت ، لا شبهة في حصوله ولا استبعاد ، ثم ينيه إلى سهولة ما عظم عنده  
بما جرى في نفسه ( وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً ) .  
ولكن هذه البشائر وهذا التدليل لم تقف بذكرها عندما فيها من التفاؤل  
الأكيد ، بل زادته شغفاً بقرب الحصول ، فسأل الله آية على ذلك .  
وفي كثير من هذه المراحل معان إنسانية ، فيها وجوه من الشبه بين الأنبياء  
وبين غيرهم من الناس .

\* \* \*